الحاصـــد

ترتدي الفِيلا أسـدنة الحزن السـوداء، انطفأت مصابيحها الخارجية التـي لطالما أضفـت جوًا من البهجـة والفرح، وتم الاكتفـاء بمصابيح شحيحة الضوء في كل غرفة، كان هذا طلبه الذي أصر عليه.

ولم يكن حالها من الداخل أفضل، فقد انطفأت الابتسـامات والوجوه الضاحكة، واستفردت الدموع بالمشهد العام بين كل الوجوه الكالحة.

ركضت الابنة الصغرى نحو أمها التي احتضنتها بلهفةٍ، ثم سألتها بنحيبٍ:

«هل..؟»

هزت أمها رأسها بقوةٍ وهي تحتضن رأسها:

«لا...ليس بعد، هو بانتظارك لتودعيه».

انهارت الفتاة في بكاءٍ شديدٍ وهي تهز رأسها:

«لا أسـتطيع.. لا أسـتطيع أن أراه وهـو بهذا الشـكل، ضعيفًـا واهنًا، يوشك الموت أن يحقق عليه انتصاره».

مسدت الأم شعرها وطمأنتها:

«الموت ليس المحطة الأخيرة، أبوك سوف ينتقل لعالمٍ أفضل».

هزت الابنة رأسها بقوةٍ والدموع تقتات من وجنتيها الشاحبتين:

«شعوري ليس أفضل وأنتِ تكذبين، تعرفين مثلي أن حنانه كأبٍ لن يغفر له خطاياه وذنوبه، لن يذهب للعالم الذي يذهب له الصالحون، ماما أكاد أحترق للمصير الذي ينتظره».

احتضنتها الأم بقوة تهدئ من روعها وتهمس في أذنها:

«أخبرتك أنني سأهتم بهذا الأمر، وأعدك أن يذهب أبوكِ للمكان الذي يستحقه رجل رائع مثله، ولو كانت ذنوبه بحجم الجبال».

نظرت لها الفتاة بدهشةٍ:

«تبدين واثقة تمامًا».

هزت الأم رأسها:

«نعم.. سوف.. آه، لقد جاء».

«من هو الذي.. أمي..».

تابعت أمها التي ركضت باتجاه الباب وفتحته؛ لتستقبل رجلًا غريب الهيئة، اقشعر جسد الفتاة لمجرد مروره من جوارها، ورائحته النتنة تتبعه وتلقي بثقلها على الهواء، حتى أن بعض السيدات نهضن مسرعات للحمام يتقيأن.

قاومت الشعور بالغثيان، ولحقت بأمها تمسك بذراعها قبل أن تدخل خلف الرجل:

«انتظري، من هذا الرجل الكريه الرائحة؟ ولماذا يدخل لأبي؟».

أمسكت بيديها وهي تهزها بقوةٍ وثقةٍ:

«هذا من سيخلص والدك من خطاياه».

عادت الفتاة تنظر بذهولٍ شديدٍ لظهر الرجل واقفًا أمام فراش والدها، يبدو أطول من أي رجلٍ عادي، لا شيء يظهر منه، لا وجه ولا يدين ولا أقدام. يرتدي عباءة تُخفي كل معالم جسده من قدميه، وحتى القلنسوة التي تغطي رأسه ووجهه، اعترضت الفتاة بخوفٍ، ولكن أمها لم تسمح لها وأغلقت الباب.

يعلم أنه اقترب من الموت كما يحدث من قبل طوال عمره البالغ ستون عامًا، هل سيتحسر على تلك الدنيا ويتمسك بها، ربما ينشب أظافره في آخر أنفاسه كي لا تتركه وتولى.

يسمع بينما عيناه مسترخيتان باستسلام، بانتظار ملاك الموت، هل من عادته زيارة الموتى قبل الأجل؟

يشعر به يقترب.. يقترب.. رائحته الكريهة النتنة تكاد تلتهم كل ذرة هواء في الغرفة المحكمة التهوية، أخذ يتساءل..

هل يستعد؟.. هل سيشعر بتنميل في أطرافه السفلية أولًا؟.. صوت ابنته الصغيرة الباكي يصل إليه وكأنه من مجرةٍ أخرى.. إذًا فهو الموت..

يـزداد اقترابًا وتزداد الرائحة نتانةً، يشـعر وكأنه سـيصحو وسـيؤجل الموت ليومٍ آخرٍ..

صوت حفيف ثوبٍ ثقيلٍ يكاد يلمس يده المتوسدة جانبه..

يبدو أنه لم يستطع الصمود وهذه الرائحة تغتال كل أحلامه عن الموت الهـادئ، حتـى رغم كل خطاياه، ما يزال يأمل في الرحمة وحسـن الخاتمة.. فتح عينيه فجأة، لتضيقان في نفس اللحظة وكأنه يحاول أن يدرأ عن نفسه خطرًا محدقًا، لا يعرف كنهه، فذلك الرجل المهيب الكريه الرائحة، المتلفع بالسواد، لم يبدو حقًا كملاك الموت، ربما هو حقًا..

خيل إليه أنه يلمح ابتسـامة شـامتة من ظلام القلنسوة السوداء، كيف يرى ابتسامة رجلٍ، ملامحه غير واضحة، وكأنها غير موجودة؟

اذدرد ريقه بحشرجةٍ قويةٍ، ثم سأله بصوتٍ يرتعش كأوصاله:

«مـ.. مـ.. ن أنت؟».

ربـما لو كان قد ذهب للجحيم مـن قبل لوصف هذا الصوت أنه قادم مـن هنـاك، ولكن ربما يعتبر هذا هو الوصف المثـالي لذلك الصوت الذي أجابه، قادم من الجحيم، ومتهكم أيضًا:

«ألا تعرف حقًا.. من أنا؟».

حـاول ازدراد ريقه مرةً أخرى، ولكنـه كان جافًا كعود حطبٍ نخرته الشمس لسنوات:

«هل.. هل.. أنت.. هو.. ملاك الـ.. موت؟».

ضحكة ساخرة مجلجلة، ولكنها أرعدت أوصاله المفككة بالفعل، ثم اقترب بوجهه، أو بالقلنسوة ليلفح وجهه بأنفاسه الكريهة كرائحة البيض الفاسد:

«كلا يا صديقي، ربما تتمنى لو كنت هو.. أنظر».

خرج من أحد أكمامه ما يشبه اليد، ولكنها ذات أصابع رمادية شديدة الطـول والنحول، أشـبه بمخالب طائرٍ ضخمٍ، اتجهـت أنظاره إلى حيث يشير، كان على بطنه رغيف من الخبز.

تساءل بدهشةٍ:

«من.. كيف.. ما.. هذا؟».

جاءه الصوت الكريه يهمس في أذنه مرة أخرى:

«ألم يداعـب هذا ذكرياتك.. منذ كم سـنة.. خمس.. عشر.. عشرين؟ السنوات حيث أنا لا معنى لها».

فغـر فاهه وهو يتطلع له. يـكاد جلد وجهه يتسـاقط من الرعب وهو يشهق بفزعٍ:

«أنت.. أنت هو.. هو».

اعتدل في وقفته وأجابه بنبرة انتصار:

«نعم.. أنا هو».

ثم نزع القلنسوة عن رأسه، ليصرخ مرةً أخرى:

«ولكنك.. ولكنك».

أجابـه وهو يفتح فمه الكبير، من الأذن للأذن، وتظهر أنيابه الشـائكة كسمة البيرانا:

«نعـم.. أنا هنا لألتهم خطاياك، وروحك، وكل ذكرياتك، كما فعلت بي أنا صديقك الوحيد».

صرخ بفزعٍ:

«لا.. لا لقد كنت أساعدك لتذهب للعالم الآخر بدون خطايا».

هدر صوته كانفجار جبلٍ:

«لذلك استدعيته، وهو التهم خطاياي وروحي».

أكمل ولكن بأصوات كثيرة:

«نحن أصبحنا أسراه، ولم نسـتطع العبور، وأصبحـت مهمتنا، التهام المزيد من الخطايا والأرواح».

وقبـل أن يصرخ ويطلب النجدة فتـح آكل الخطايا فمه الكبير؛ ليلتهم رغيف الخبز وروحه.